مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

صيفاك عاهل نوميديا
الشيخ المحنك ٢٢٠ ق.م – ٢٠٣ ق.م.

حملات عبد الرزّاق
باحث في التاريخ الأفريقي المعاصر
أستاذ للتعليم المتوسط – دائرة صدوق
ولاية بجاية – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص
إنّ التاريخ القديم غني بأحداثه وشخصياته، وتاريخ بلاد الأمازيغ أو ما يعرف بشمال إفريقيا له نفس الأهمية إن لم نقل أكثر، فلقد عرف ميلاد إمارات وممالك ودول وشخصيات لعبت دورًا في عجلة التاريخ المحلي والعالمي، ومن بين هؤلاء نجد شخصية العاهل النوميدي الفذ والمحنك سيفاكس أو سيفاك، والذي تميّزت فترات حياته بأحداث مهمة محلية وعالمية كتوحيده للمملكة النّوميدية بجزأيها الشرقي والغربي وكذا محاولاته للإصلاح بين أعظم إمبراطوريتين عرفهما العالم القديم عامة وحوض المتوسط على وجه الخصوص وذلك باجتماعه بين ألد الخصوم القائد الروماني سيبيون والقرطاجي صدر بعل، والذي انتهى بالفشل واستمرار رحى الحرب الطاحنة بين العملاقين، ورغم حكمة هذا العاهل الفذ وسرعة بديهيته في تقدير الأمور إلا أنّه عرف نهاية مأساوية بعد سقوطه في الأسر وتسليمه للرومان الذين لم يكونوا رحيمين به.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ٢٣ يناير ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٢٥ فبراير ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:
بلاد الأمازيغ؛ قرطاجة؛ نوميديا؛ مملكة مازيسيليا؛ سيفاكس

معرّف الوثيقة الرقمي:
10.21608/KAN.2023.324144

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
حملات عبد الرزاق. "صيفاك عاهل نوميديا: الشيخ المحنك ٢٢٠ ق.م – ٢٠٣ ق.م.".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٢٣ – ٣١.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: abderrezak93@live.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّوريةُ كَان التَّاريْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةُ

لقد عرف المغرب القديم ظهور ممالك وإمارات قوية تحت قيادة ملوك عظام حافظوا على كيانها السياسي ولعلّ من أبرز تلك الممالك والإمارات نجد مملكة موريتانيا بقيادة بوخوس ١و٢ ومملكتي الماسيل بقيادة غايا ثمّ ابنه ماسينيسا ومملكة المازيسيل بقيادة سيفاكس.

وتم اختيارنا موضوع شخصية سيفاكس للدراسة للدّور الذي لعبه هذا العاهل في مجريات الأحداث وتاريخ المنطقة عامة ومملكته خاصة، وكذا الرّغبة في كشف الغموض الذي اكتنف هذه الشخصية الأمازيغية العظيمة رغم النهاية المأساوية، فقد اعتمدنا في دراستنا هذه على مجموعة من المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ هذه الشخصية مثل: تيتيوس ليفيوس، بوليبيوس، سترابون وآبيان....بالإضافة إلى كتب: ماسينيسا أو بداية التاريخ، نوميديا، يوغرطا، تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة، الاقتصاد والمجتمع في شمال إفريقيا، المملكة النوميدية والحضارة البونية، مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديمة،... ومن أهم التوجيهات والتوصيات المقدمة، علينا نحن الأمازيغ في شمال إفريقيا السعي جاهدين للنهوض بتاريخنا الحضاري لنقله إلى الأجيال اللاحقة، وإيجاد مدرسة تاريخية محلية للبحث في تاريخنا ولا نجتر فقط ما كتب من طرف المؤرخين القدامى....ولقد تم طرح الإشكالية التالية: **كيف استطاع العاهل سيفاكس فرض وجوده على مسرح الأحداث؟** والتساؤلات الفرعية: **من يكون سيفاكس؟ أهم إنجازاته؟ كيف استطاع المحافظة على الكيان النوميدي؟ كيف انتهت حياة عاهل الشرق والغرب؟**

١-المغرب القديم أو نوميديا

إنّ منطقة شمال إفريقيا أو المغرب القديم أو بلاد الأمازيغ هي المنطقة الممتدة من الحدود المصرية شرقًا إلى المحيط الأطلسي- غربًا ومن البحر المتوسط شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوبًا، والتي عرفت مجموعة من الشعوب الأمازيغية التي تواجدت هناك من نوميديون، جيتول، غرامنت، ومور، ولكن أقواها هم النوميديون الذين استطاعوا تأسيس مملكتين عظيمتين هما: نوميديا الشرقية التي تعرف بماسيليا بقيادة غايا ثم ماسينيسا ثم مسيبسا...ونوميديا الغربية التي تعرف بمازيسيليا بقيادة سيفاكس ثم فرمينا.[١]

٢-نوميديا الغربية أو مملكة المازيسيل

كانت أول الأخبار التي وصلتنا عن مملكة المازيسيل تعود إلى حوالي ٢١٣ ق.م حيث يذكر المؤرخ بوليبيوس بأنّ القرطاجيين كانت تربطهم علاقة صداقة متينة مع الملك سيفاكس(Syfax) قبل هذه الفترة وأنّ المازيسيليين كانوا يكوّنون جزءا كبيرا من الجيش القرطاجي في إسبانيا وبلاد المغرب القديم.[٢] أما سترابون فيشير إلى أنّ أراضي قبائل المازيسيل كانت تمتد من حدود القبائل المورية غربا والتي يفصلها عنها واد الملوشة (الملوية) وتنتهي حدودها الشرقية عند رأس تريتون(Cap Traiton).[٣] وكان هدف قرطاجة من هذه الصداقة هو المحافظة على استمرار الاتصال بجيوشها في اسبانيا عن طريق هذا الجار القوي.

٣-حياة الملك صيفاك

٣/١-اسمه

يعد العاهل سيفاك ملكا عظيما اعتلى عرش نوميديا الغربية[٤] سنة ٢٢٠ ق. م، فالمسكوكات التي صورت الملك قد كتبت عليها بالبونيقية وترجمت من طرف المتخصصين كما يلي: " Sphq Hummlkt، والكلمة تتألف من مقطعين هما: Sphq أو "سفك" والتي ترجمت إلى سيفاكس أما المقطع الثاني: Hummlkt أو حمملكت فيعني رئيس أعلى أو ملك، وبهذا تعني الكلمة بأكملها: سيفاكس رئيس الدولة أو ملك المملكة.[٥] وقد أطلق اسم سيفاكس على ملك أسطوري في شمال إفريقيا قد يكون منحدر من نسل هرقل وهذا على حد تعبير الملك النوميدي يوبا الثاني.

في حين أشار ابن خلدون إلى اسم سافاك، وهو أحد أجداد الأمازيغ، رغم أن النصوص لم تذكر إلا ملكا واحدا باسم سيفاكس، في حين المسكوكات تصوّره بشكلين مختلفين وتحت اسم واحد، وبعد افتراضات عديدة حول إمكانية وجود ملكيني يحملان نفس الاسم وهو شيء يتنافى مع ذكر النصوص، وصلت النتيجة أنه نفس الملك والفرق يرجع إلى اختلاف دور سك العملات، حيث إن المجموعة الأولى قد سكت محليا بينما الثانية التي تصوّره متوجا قد سكت في إسبانيا.[٦]

يعتبر سيفاك أول عاهل نوميدي تمتع بلقب ملك، وهو الوحيد الذي له الحق في صنع المسكوكات، وهذا ما ظهر جليًا في النقود التي تظهره وابنه على وجه العملة هذا وان دلّ على شيء هو أنّه زعيم وملك القبائل الواقعة في منطقة الماسيل الوهراني-نوميديا الغربية- واتخذ سيغا-عين تيموشنت الحالية- عاصمة لدولته، ولقد كان قويا من ناحية السلطة السياسية، وهذا ما يوضحه وجود التاج على رأسه جعله على مستوى واحد مع ملوك الدولة الهلنستية.[٧]

٣/٢-الصفات التي ميّزت هذا العاهل

مما سبق يمكن لنا القول إنه بالنظر والتدقيق في المسكوكات المتوفرة يلاحظ أن من أهم الصفات التي تتمتع به شخصية سيفاكس:

- فهو من الناحية الفيزيقية-الفيزيولوجية- لا تدل ملامحه على حبّ المغامرة، بل أننا نرى فيه شخصية الشيوخ ممن يميلون إلى تصريف الأموال بالعقل لا بالسلف، ولهذا اتسمت أهم أعماله بكونها أعمال سياسية لا حربية.[٨]
- لم يكن يتصف في سياسته بالدّهاء، بل كان صاحب شخصية غير ملتوية وهذا ما انعكس على خطط سياسته التي تتسم بالوضوح والعلن.
- على الرغم من أننا نعثر لسيفاكس على نقوش المسكوكات في صور شتى قد لا يقوم بين الصورة والاخرى تشابه ملموس، وهذا قد يؤدي إلى وضع الباحث في حيرة الاستدلال على تحديد الشكل أو الرسم أو الصورة الخاصة بسيفاكس على وجه الحقيقة، ولكن يمكن القول بشكل عام أنّ الصور المختلفة التي يظهر بها وجه سيفاكس على المسكوكات تنمّ عن شخصية تميل إلى الاستقرار الحضاري والسلوك النظري والتّنعم والهدوء أكثر من ميله إلى سلوك الحرب والدّمار.[٩]

٣/٣-أهم أعماله ومنجزاته

لعل من أهم ما خلفه الملك سيفاك في مملكة نوميديا عامة ونوميدية الغربية خاصة-المازيسيل- نجد:

(٣/٣) ١-التنظيم السياسي والاداري

يكاد التنظيم السياسي والاداري للمملكة المازيسيلية يكون مجهولاً، إلا عندما ننظر إلى المسكوكات التي ضربها لنفسه وابنه بعده دليل على أنّه الملك والآمر الناهي فيها، فتظهره القطع النقدية رجل بلحية مدببة، شعر قصير وعاري الرأس وفقه ٩ دوائر وخلف العملة رجل يمتطي حصانا دون سرج وهو مرتدي المعطف التقليدي الذي اشتهر به الأمازيغ " البرنس" وفي يده عصا أو رمحا وأسفل بطن الحصان مستطيل كتب فيه بالبونيقية والتي ترجمت الى اللاتينية Sphq Hummlkt والتي تعني رئيس الدولة ملك المملكة[١٠]، ونرى أن الفارس متجه نحو اليمين أو الغرب ومحاولاته الأولى لإخضاع القبائل المحيطة به وتوحيده مازيسيليا في الوقت الذي اتجهت سياسته نحو الغرب، في حين هناك قطع تبين فيها صورة نصفية لسيفاكس وعمره أصغر على رأسه تاج من تيجان الملوك الهلنيين، وشعر رأسه مموجا ولحية دائرية الأطراف وعلى اليمين دوائر أما على ظهر العملة رجل يمتطي حصانا متوجها نحو الشمال وقد يرمز اتجاه الفارس المحارب إلى اتجاه العمليات الحربية التي يقودها سيفاكس أو إلى قيمة العملة.[١١]

فيظهر جليًا في عام ٢١٣ ق.م أنه أهمل استرداد أملاكه التي احتلها الماسيليون والقرطاجيون عبر مضيق جبل طارق للالتحاق بالرومان هناك، كما وضع لنفسه علاقات اقتصادية مع إسبانيا. لكن بعد تاريخ ٢٠٦ ق.م بدأت سياسة سيفاكس تتجه شرقا وكانت ماسيليا منظر أطماعه حيث قام باحتلالها ما بين ٢٠٦ ق.م-٢٠٣ق.م، فلقد بلغ مراده بضم كل نوميديا تحت سلطانه، كما كان له سياسة خاصة تجاه عالم المتوسط فقد كانت له علاقات صداقة وتعاون واقتصاد مع روما، قرطاجة واسبانيا في فترات السلم، فكان سيدا على كل الموانئ في الساحل الوهراني، كما حاول أن يجعل من اللقاء الذي جمعه مع كبار قادة المتوسط مؤتمرا للقمة[١٢] حيث تنافست كلّ من روما وقرطاجة على كسب وده جعله حليفا استراتيجيا لها.

(٣/٣) ٢-بناء المدن المازيسيلية

سيقا عاصمة المملكة: هي أقدم مدينة في مملكة المازيسيل، ولقد ذكرتها النصوص والمصادر التاريخية كعاصمة أولى وأصلية لسيفاكس، وقد جمعت في عام ٢٠٦ ق.م بين أعظم قادة البحر المتوسط وهما سيبيون الروماني وأزدروبعل القرطاجي، أين خطط سيفاكس

لتكون عاصمته موضعا لأعظم مؤتمر يجمع بين العدوين التقليدين الروماني والقرطاجي للمصالحة بينهما.[١٣] وتقع هذه المدينة-العاصمة- على الضفة الشمالية لنهر التافنة (Tafna) على بعد ٩٠ كم شرق واد ملوية، وهناك من يقول أنها تقع على بعد ٤ كم جنوب مصب واد التافنة، على ضفته اليسرى[١٤] وآثارها الحالية تقع بالقرب من تاكمبريت، وبعيدة عن الساحل ب ٥ كم وميناؤها في الجنوب مقابل لجزيرة رشقون أو رشجون.[١٥]

المدن الساحلية لمازيسيليا: اعتبرت المدن الساحلية منافذ ومراكز مهمة لمازيسيليا فقد ساهمت في تجارة البحر المتوسط، وفي التبادل الحضاري بين مازيسيليا والعالم الخارجي فلقد ذكر البعض منها ضمن ممتلكات قرطاجة غير أن موقعا داخل الأراضي المازيسيلية والذي يعطينا الحق بالحديث عنها كأراضي مازيسيلية خاصة وانه تم استرجاع أغلبها عام ٢١٣ ق.م، فلقد وجدت مدن نوميدية بين المراكز البونيقية أو الفينيقية وأحيانا أخرى مدينة بونيقية ومدينة نوميدية تقع على مقربة منها مدينة تحمل نفس الاسم مدينتي (كلكيا) النوميدية والبونيقية اللّتين تم الاشارة إليهما من طرف سيلاكس.[١٦]

المراكز الساحلية: لقد ذكر سترابون اعتمادا على وثائق سابقة لعصره، أنّ هناك بعض المراكز الساحلية شرقي سيغا منها:

الميناء المقدس (Portus Divini): عند الرومان والمعروف حاليا بالمرسى الكبير أوالمرفأ الكبير.

أيول (Iol): وهي مدينة شرشال الحالية والتي أطلق عليها الملك يوبا ٢ قيصرية (Caesaree) بعدما جعلها عاصمة له تخليدا وتكريما ليوليوس قيصر، وسميت بيول نسبة للرب الفينيقي يول.، وكما تم الاشارة لها في ق ٤ ق.م ضمن مدونة رحلة سيلاكس بأنها كانت قرطاجية ولقد تم العثور فيها على أدوات من بينها صنج من البرونز عليه نقش بونيقي وعدد من النقوش البونيقية الجديدة من ضمنها كتابة معاصرة للملك مكوسن.[١٧]

صلداي (Saldae): وهي بجاية الحالية وتقع بجوار مصب واد الصومام الذي أشار إليه سترابون مبرزا أهميته كمركز بحري وتجاري، ولقد عثر هناك على مسلات تحمل نقوش بونيقية.[١٨]

سيد: والتي ذكرها سيلاكس ضمن مدونات رحلته ومن الجائز أنه يقصد (Saldae) خاصة وأنه أشار إليها بين يابسة (Thapsa) سكيكدة الحالية ويوليواكر (Louliou Acra) شرشال الحالية.

إيجيجلي (IGIGLI): جيجل الحالية وتقع في رأس بوجرون وخليج بجاية، ولقد عثر فيها على مدافن من الطراز الفينيقي، وتعود بعض الفروض بالتسمية إلى اسم فينيقي الأصل كما وجد بها بقايا معامل لصناعة الأرجوان. وثمة وثائق تعود إلى الحقبة الرومانية تعرفنا على خمس مدن تقع بين بجاية والجزائر العاصمة وتبدأ بالكلمة الفينيقية " رأس " أو " روش "-Roch- وهي: روزازوس(Rusazus) آزفون-Azzeffoun-، روزوبير(Rusippir) وهي: تاكسبت الحالية(Taksebt) على رأس تادلس (Tadless) ثم روزوكورو(Rusucuru) وهي دلس(Dellys) الحالية، قرب مصب نهر سباو(Sebaou) ثم غربا روزوبيكاري (Rusubbicari) أو عين أشرب الحالية-شرقي الجزائر العاصمة.

إيكوزيوم (Icosium): ولها ميناءان –من الرياح الشرقية ومن الرياح الغربية- والتي أطلق العرب عليها اسم الجزائر نظرا لكثرة الجزر الصغيرة القريبة من أراضي الشاطئ، والتي يبدو أنها كانت مركزا فينيقيا، والتي يرجع تأسيسها حسب الأسطورة إلى رفقاء هرقل ليست بدليل قاطع أنها إغريقية إذا اعتبرنا أن هرقل المشار إليه هو الإله الصوري ملقرت-Melqart- ولقد عثر في إيكوزيوم على بقايا بونيقية منها مصباح وأحجبة وتمائم من النّوع المصري القديم.[١٩]

تيبازة (Tipaza): قد عثر بها على أدلة أثبتت الوجود الفينيقي والنوميدي بها، ولقد تمثلت هذه الأدلة في بعض المسلات التي ترجع إلى العهد الروماني وقد رسم عليها رمز الربّة تانيت(Tanite) وبعض الدهاليز الفينيقية كما عثر بها على صورة تمثل الثعابين وميناء صغير تعود إلى عهد الامبراطورية الرومانية، ويحتمل أن يكون هذا الميناء شيّد على أنقاض الميناء الفينيقي القديم.[٢٠] بالإضافة إلى مدن عديدة يجهل موقعها اليوم مثل: هبدوموس(Hebdomos) مدينة وميناء، ثم جزيرة آكيون(Acion) مدينة وميناء، بساماثوس(Psamathos) مدينة وميناء وفي الخليج جزيرة برتاس(Partas) وميناء

كالكا(Chalcoi) وكذا مدينة على نهر أريلون(Arylon) ومدينة ماس وميناؤها.[٢١]

أما فيما يخص **المدن المازيسيلية** من الناحية الغربية فنذكر منها:

جزيرة رشقون(Rachgoun): في السواحل الوهراني المقابل لمصب وادي التافنة.

مرسى مذاق (Marssa Madakh): الذي أقام فيه الفينيقيون فيما مضى.

مركز GUNUGU: والذي يبعد عن مدينة شرشال ب ٣٠ كم إلى الغرب وهو معروف حاليا بقوراية سيدي إبراهيم (Gouraya Sidi Brahim).[٢٢]

(٣/٣) ٣-توحيد نوميديا لأول مرة

طبق العاهل سيفاكس نظام اللامركزية من حيث التنظيم الإداري في مملكته بعد توحيدها حيث كان له عاصمتين سيغا وسيرتا تسيران من طرف موظّفين سامين محليين يعيّنهم الملك بالإضافة إلى مجالس شبه قبلية ورجال دين وكذا جباة الضرائب وضباط في الجيش يشترط فيهم أن يكونوا موالين للملك.[٢٣]

عمل سيفاك على صك عملته الخاصة في مدينة سيغا وكان له بها معمل خاص يضرب العملة، فلقد كان عاصمته سيغا على واد التافنة وسيرتا على نهر الرمال واللتان كانتا تمثلان عصب الحياة في مملكته حيث كان يستقبل فيهما السفراء والمبعوثين الخاصين ورؤساء الدول الذين كان يتعامل معهم، كذلك كان يلتقي فيها برؤساء مقاطعات المملكة من أمراء ورؤساء قبائل حيث كان يزوّدهم بالتعليمات الضرورية لتسيير شؤون المملكة.[٢٤]

نتيجة لسياسة التّعقل التي كان يتصف بها هذا الملك العظيم ازدهرت الدولة النوميدية الغربية واتسعت رقعتها بعد أن بدأت تميل إلى القرطاجيين في صراعهم مع الرومان، وحتى يضمن سيفاك وقرطاجة مخططهما ضد الرومان كان عليهما أن يعملا على الحد من نشاط العاهل الشاب ماسينيسا[٢٥] في المنطقة والحيلولة دون تقرّبه من الرومان، وهو ما بدا لهم مصدر خطر وعنصرا نشيطا يمكن أن يستغله سيبيون بوبيليوس في الوصول إلى أهدافه.[٢٦]

(٣/٣) ٤-تنظيمه لأول مؤتمر دولي (مؤتمر سيغا ٢٠٦ ق.م)

لقد اشترط على المبعوث الروماني أن يلتقي بالقائد الروماني سيبيون نفسه ومن أجل ذلك انتقل هذا الأخير إلى مدينة سيغا (Siga) عاصمة مملكة سيفاك ملبيا الطلب ما دام الأمر يهم مصلحة الرومان، وفي مدينة سيغا التقى القائد سيبيون الروماني مع القائد القرطاجي صدر بعل بن جيكسون الذي حلّ بها في نفس الوقت. هل كان ذلك صدفة؟ أم أن سيفاك مان قد خطط ورتب لذلك مع القائد القرطاجي؟ المهم أنّ القائدين الروماني والقرطاجي التقيا في ضيافة العاهل النوميدي سيفاك، ولقد تفاوض العظماء الثلاثة في شؤون انهاء العداوة التقليدية والحرب الدائرة بين روما وقرطاجة على السيادة على البحر المتوسط.[٢٧]

غير أنّ القائد الروماني سيبيون صرّح لمحاوريه بأنه لا يكن أي عداوة شخصية للقائد القرطاجي، لكنّه لا يستطيع البث في قضية يعود الحل والعقد فيها لمجلس الشيوخ والشعب الروماني، وبذلك تفرق الجميع دون إيجاد حل لتلك الحرب التي أثقلت الجميع.[٢٨] وفي الحقيقة كان سيفاك يدرك ويلات تلك الحرب إذا انتقلت إلى شمال إفريقيا كما أنّه كان يقدّر قوّة العدوين المتصارعين وعلاقة ذلك بمملكته المحايدة حتى تلك الفترة من سنة ٢٠٦ ق.م، وبذلك كان يحاول جاهدا أن ينهي ذلك النّزاع عن طريق التفاوض والمصالحة وهي أسمى الطرق في رأيه.[٢٩]

٤-تحالفه مع قرطاجة

بعد اللّقاء الذي جمع بين "صدر بعل بن جيكسون والملك سيفاكس للمرة الثانية في سيغا ودراستهما لنتائج هذا المؤتمر الدّلي حول تقرير مصير الصراع التّقليدي بين روما وقرطاجة وبداية تحركات ماسينيسا بعد وفاة والده غايا محاولا الوصول إلى كرس العرش وهذا ما قاده للتّقرب من الرومان.[٣٠]

كل المعطيات المشار إليها أفضت إلى إمضاء اتفاقية بين سيفاكس وقرطاجة أين التزم سيفاكس بأنه في حالة مهاجمة الرومان لشمال إفريقيا فإنّ الجيش المازيسيلي سيحارب إلى جانب القرطاجيين.[٣١] ومن جهتهم قرر القرطاجيون تزويج العاهل سيفاكس بالأميرة القرطاجية سوفونيزبه[٣٢] بنت صدر بعل التي خطبت سابقا للأمير

ماسينيسا عندما كان ضابطا في الجيش القرطاجي بإسبانيا.[٣٣] ولقد عدّ المؤرّخون المحدثين ذلك الزواج بأنّه زواج سياسي أكثر منه عاطفي.[٣٤] كما يعتبر أيضا تخليا عن ماسينيسا من قبل القرطاجيين وإيذانًا منهم لإطلاق يد سيفاكس في نوميديا الشرقية.[٣٥] وبموجب الاتفاق المشار إليه أرسل سيفاكس سنة ٢٠٤ ق.م مبعوثين للقنصل الروماني سيبيون الذي كان معسكرا في سراقوصة (صقلية) يخبرونه أنّه إذا نقل الرومان الحرب إلى شمال إفريقيا فإنّ جيوش الملك سيفاكس ستحارب إلى جانب القرطاجيين ضدّ الرومان.[٣٦]

أن القائد الروماني لم يعبأ بذلك وقد نقل الحرب إلى شمال إفريقيا حيث نزلت الجيوش الرومانية بالقرب من رأس آبولون(Apollon) وهو ما يعرف حاليا برأس سيدي علي المكي شرقي خليج تونس، ثمّ حاصروا بعدها مدينة أوتيكا.[٣٧]

٥-المجابهة المباشرة بين العاهلين النوميديين ماسينيسا وسيفاك

عندما اشتدت ايذاءات الأمير ماسينيسا لقرطاجة وحلفائها في ماسيليا، كلفت سيفاكس بحكم المصاهرة والتحالف لردّ الاعتداءات ونظرا لانشغالها بالحرب البونية الثانية[٣٨] أوعز سيفاكس لقائده بوكار(Bucar) بتنفيذ المهمة بعد أن زوّده بفيالق من المشاة والفرسان.[٣٩] وما هي إلى أيام معدودة حتّى شتّت جيوش سيفاكس جنود ماسينيسا ولم ينجو من تلك المناوشات إلا ماسينيسا بعد أن أصيب بجراح بليغة مما جعل بوكار يعتقد أنّه قد هلك وأخبر سيفاكس بوفاة غريمه فانتشر الخبر الخاطئ بعد ذلك في أنحاء كامل نوميديا.[٤٠] وكان ماسينيسا قد تستر عدّة أيام حتّى التأمت جراحه ثمّ عاد إلى حرب العصابات بعد ذلك فاحتل المنطقة الواقعة بين عنابة وسيرتا ثمّ بدأ زحفه نحو الغرب.[٤١]

لمّا رأى سيفاكس أعمال ماسينيسا تلك وتهديداته المتكرّرة استعدّ للأمر وكلّف ابنه فرمينا(Vermina) بمباغتة جنود ماسينيسا من الخلف ثمّ هاجمه هو بجيوشه الكبيرة من الأمام مما أدى إلى فقد ماسينيسا كلّ ما يملك من جنوده والقيام بالفرار مع زمرة قليلة من مرافقيه إلى الأقاصي البعيدة من خليج السيرت بليبيا الحالية ويبقى هناك يتحينّ الفرص دون يأس أو قنوط.[٤٢]

وبسبب الصراع القائم بين قرطاجة وروما جعل سيفاكس يفكر في الوسائل الفعالة لإيجاد حلّ مناسب للمشاكل التي تمس سلامة قرطاجة مع الإبقاء على العلاقات الحسنة مع روما وذلك منذ ٢١٣ ق.م في لقاء القمة الذي جمعه مع القائد الروماني سيبيون في الجزيرة الإيبيرية.[٤٣]

ومع هذا اختار سيفاكس التحالف العلني مع قرطاجة حيث إنّ مصير بقاء مملكته ووجوده كان مرتبط أشد الارتباط بها. لقد حاول سيبيون إقناع العاهل سيفاكس عن العدول عن مناصرة القرطاجيين ولكن دون جدوى، فقد رفض هذا الاقتراح، ويرجع بوليبيوس سبب فشل القنصل الروماني في إقناع سيفاكس إلى قوّة شخصية زوجته التي كان لها تأثير شديد عليه في اتخاذ القرارات الكبرى.

٦-سقوط ونهاية سيفاكس

إنّ عشية معركة السهول الكبرى التي دخل فيها سيفاكس لأول مرة إلى جانب قرطاجة ضدّ الرّومان وكانت أيضا معركة سيرتا سنة ٢٠٣ ق.م الموقعة التي يتم فيها إلقاء القبض على سيفاكس ثمّ القضاء عليه في روما كانت بداية النهاية لملكة نوميديا الموحدة تحت لواء سيفاكس بجزأيها الشرقي والغربي التي كانت حدودها ممتدة من أملاك الدولة القرطاجية شرقا إلى واد مولوشة (ملوية) غربا.[٤٤]

نقول أنّ النصر كان حليف سيبيون وأعوانه ومن ضمنهم ماسينيسا، واتفقوا على تقسيم الأعمال والجيوش فكان للأمير النوميدي-ماسينيسا- أن يقود صحبة ليليوس كتائب النوميديين وبعض الكتائب الرومانية وسدّد ضرباته نحو سيفاكس حتّ لا يتمكن من تضميد جروحه وإعداد العدة للقتال من جديد.[٤٥] فاتجه كلّ من ماسينيسا وليليوس نحو الغرب لكنّهما عدلا في الأخير عن متابعة سيفاكس لأنّهما أيقنا أنّ لا سبل إلى اللحاق به، وبعد ١٥ يوما مضت ولج القائدين أرض الماسيل فرحّبت بهما القبائل واستقبلت أميرها أحسن ما يكون الاستقبال وقضى على الجنود والولاة الذين سلّطهم سيفاكس بالدّيار الماسيلية.[٤٦]

ومهما يكن من أمر، فقد عمد العاهل سيفاكس إلى جمع جنود يعزّزون صفوفه وتأهب لمقابلة الرومان وحليفهم ماسينيسا، فقد كان المعسكران قرب مدينة سيرتا من الجهة الشرقية ولقد خرجت طلائع الكشافة من الجيش يتعرّفون على أسرار المنطقة من حيث السبل والتضاريس فوقع الاصطدام حتى كان على الخيالة أن تتدخّل وكان لسيفاكس عدد كبير من الفرسان فحملوا بسرعة فقد كاد الرومان يذهبون ضحيّة كرّاتهم لو لم يأتي المشاة يتصدّون لضرباتهم وكأنّهم سدود من حديد يعطّلون تحركات الفرسان فكلما اقتربوا منهم أوقفوا خيلهم حائرين ثمّ أدبروا فكان الكرّ والفرّ.[٤٧]

وأمّا وقوع سيفاكس في الأسر فهناك عدّة روايات ومنها:

- أنّه في أثناء المعركة صادف أن سقط سيفاكس على جواده في ظروف غامضة وأقبل عليه العدو وهو طريح الأرض فغلّلوه وحملوه إلى ليليوس وكان ذلك في ١٤ جوان ٢٠٣ ق.م على حدّ رواية أوفيد (Ovide).[٤٨]
- وأورد تيت ليف (Titus Livius) اعتمادًا على رواية بوليب (Polibius) وأوردها أبيان(Appain) مع بعض الاختلاف في النص: "أنّ معركة دارت بين ماسينيسا وسيفاكس أدبرت جنود المازيسيل وجرح حصان سيفاكس فسقط راكبه-يقصد سيفاكس- وعندها أسرع ماسينيسا وقبض على غريمه -يقصد سيفاكس-وعلى أحد أبنائه وأرسلهما فورا إلى سيبيون".[٤٩]
- وفي أخرى تقولك إنّ سيفاكس كان ممتطيًا فيلاً فرماه جندي روماني برمحه فسقط، ومهما تعدّدت الروايات واختلفت في تفاصيلها فالثابت أن البطل المازيسيلي- سيفاكس- سقط أسيرا تحت قبضة الرومان وبسقوطه تألق نجم الأمير الشاب ماسينيسا في سماء إفريقيا حيث انتشى- بالنّصر- وتابع طريقه نحو عاصمة سيفاكس قصد فتحها وتمّ الاتفاق أن يتقدّم حتّى جدران المدينة ولمّا أدركها أمر بمناداة أعيانها وأحاطهم علما بمصير ملكهم فلم يثقوا بصحة النّبأ وقابلوا القائد النوميدي بالصّمت، لكنّهم سرعان ما استولت عليهم الدّهشة والحيرة لما أبصروا سيفاكس مغلولا مثقلا بالسلاسل فهرولوا عند ذلك وفتحوا أبواب المدينة فدخلها ماسينيسا وأسرع نحو القصر- حيث وجد الأميرة (Sophonisbe) تلتقط الأنباء فوجئت برؤية ماسينيسا، خرّت على الأرض تتضرع إليه وتسأله أن لا يتركها لعبة بين أيدي الرّومان.[٥٠]

وانتهى هذا اللّقاء بزواج ماسينيسا منها ليبعدها من الأسر وخذا ما أدى إلى تأنيبه من طرف ليليوس والذي أمر بإرسال الأميرة مع زوجها سيفاكس إلى معسكر سيبيون للنّظر في أمرها باعتبارها أسيرة حرب ولمّا اجتمع ماسينيسا ب سيبيون أيقن بالخطر وهذا ما أدى به إلى ارسال أحد غلمانه حاملا السّم في كأس إلى الأميرة قصد انتحارها، فهناك من يقول أنّ ماسينيسا بنفسه هو الذي قدّم السّم لأميرته. [٥١]

أمّا بخصوص سيفاكس فلقد وصل إلى المعسكر الرّوماني يجرّ أذيال الخيبة مثقلاً بالسلاسل وكان الجنود والضّباط يتزاحمون ليشاهدوه من قريب ويتعرّفوا على الظّروف التّي أسقطته تحت أيدي أعدائه. فهناك من تحدّث من المؤرخين عن تأثر سيبيون لمّا رأى الملك مغلولاً، وتذكر أنّه كان ضيفه عام ٢٠٦ ق.م-مؤتمر سيغا الدولي- في قصره، فرقّ لحاله وأشار أن يعاملوه بلطف وانسانية، أمّا سيفاكس حاول التماس المعذرة ملاحظا معلقا أن سياسته كانت قد أملتها عليه زوجته البونيقية والتي افتكت منه عقله ورشده.[٥٢] وأضافا قائلاً حسب ما أورده تيت ليف (Titius Livius) إنّه ارتاح لنبأ زواج تلك المرأة بألدّ أعدائه فلا شك أنّها ستقوده إلى التهلكة، ونجد نفس الرواية في كتب تيودور الصقلي وأبيان وغيرهما، على أنّه من العسير اثباتها بل من المرجح لدينا أنّ الرواية وضعت لأهداف سياسية دعائية فيها تشويه لملك إفريقي حيث تم اظهاره في مظهر دنيء لا قيمة له ولا سلطان إذ غامر بملكه تحت تأثير امرأة، وفي تلك الرواية تعليل لموقف سيبيون إزاء زواج ماسينيسا بالأميرة الأرملة.[٥٣]

سقط إذا سيفاكس ومثل مغلولاً بين يدي سيبيون ولقب ماسينيسا بلقب ملك فكانت ضربة قاسية لقرطاجة حتّى أنها طلبت الهدنة قصد الدحول في مفاوضات تؤدي لوضع الحرب، فاغتنم ماسينيسا قيام الهدنة وعاد إلى مملكته لتدعيم مركزه فيها زمن ثمّ أرسل سيبيون مع

ماسينيسا ثلّة من أعوانه يقودون كتائب من المشاة والخيالة أرسلهم كي يساعدوه على توطيد مكانته بين القبائل الإفريقية والتّسلط على مملكة سيفاكس.(٥٤)

خَاتمَةٌ

في الأخير نقول، أنّ المملكة المازيسيلية انتهت مع نهاية الملك العظيم سيفاكس كما عبر عن ذلك سترابون، اذ يقول أنّ الجزء المتاخم لموريتانيا من مازيسيليا والذي كان مصدر ثروة سيفاكس العسكرية والمادية والذي اشتهر بغناه تراجعت أهميته، فسقوط سيفاكس كان سقوطًا عسكريًا وحربيًا اقترن بغزوة خارجية اجتاحت الأمّة ودمّرت الحصون واستولت على البلاد، بالإضافة إلى الحروب الداخلية التي اشتبك فيها مع جيرانه الماسيليون...كلّها أدت إلى استنزاف غالبية موارد الدولة مما أسرع الخطى بها نحو الضيق الاقتصادي والفقر العام، وأصبحت مملكة مازيسيليا عبارة عن عائلة تحمل نفس الاسم حيث استمر وجودها في عهد الاستعمار والوجود الروماني في المنطقة.

فهناك من يقر ببقاء واستمرارية المملكة بعد القضاء على سيفاكس مثل: المؤرخ بوليبيوس المعاصر للأحداث بحيث يذكر أنّ ماسينيسا قد احتل ما بين عامي (٢٠٣-٢٠٢ ق.م) كامل مازيسيليا، أمّا تيتيوس ليفيوس الذي يقول أن فرمينا –ابن سيفاكس- ظهر يحارب القرطاجيين في أواخر عام ٢٠٢ ق.م بعد زاما، ليعود ويقول أنّه حكم في جزء من مازيسيليا وبادر عام ٢٠٠ ق.م بإرسال بعثة إلى روما يطلب من مجلس الشيوخ الرّوماني العفو عن ما بدر منه من مساعدة قرطاجة كما قدّمت البعثة أيضا طلبا باسم فرمينا للاعتراف بسلطته في المناطق التي يسيطر عليها، غير أنّ مجلس الشيوخ ردّ عليهم أنّه من الأفضل له طلب السلام قبل طلب السلطة، وإرسال بعثة رومانية إلى الأراضي التي يقيم فيها فرمينا لبحث شروط السلام معه بعدما وافق فرمينا ورضخ لشروط روما وأرسل بدوره مرّة أخرى بعثة جديدة إلى روما للتصديق على الشرّوط حسب رواية تي تيوس ليفيوس.

أمّا أبيان (Appain) فقد أشار في الأول أنّ سيفاكس سجن مع أحد أبنائه ويعود ليقول إن فرمينا كان يتحكم في غالبية أجزاء مملكة أبيه سنة ٢٠٢ ق.م، وأنّه كان يمد بالعون حنبعل – القائد القرطاجي العظيم – والذي كان متمركزا في حضر موت (سوسة الحالية) في تونس.

كما يشير كاسيوس بدوره أنّ فرمينا قد سجن مع أبيه عام ٢٠٣ ق.م ثمّ أطلق سراحه، لأنّ عودته إلى نوميديا كانت بأمر من مجلس الشيوخ الرّوماني وقد تفسح للرّومان مجالا أوسع في تحقيق مآربهم في المنطقة بإيجادهم حليفين لهم في المنطقة، أما المسكوكات التي مثلت صورة تمثال نصفي للملك بدون لحية ومتوّجا يبدو فيها ملكًا شابًا صغيرًا وعلى ظهرها رسم حصان حرّ غير ملجّم وأسفل بطن الحصان مستطيل كتب عليه " الملك فرمينا "-بهذا نفهم جليا أنّ الملك فرمينا نصب كملك في شمال إفريقيا بعد وفاة أبيه-

أما عن نهاية هذا الملك الشاب فيمكن القول أنّه قتل في إحدى المعارك بينه وبين ماسينيسا، ونفهم أنّه حقيقة حكم في نوميديا في عهد ماسينيسا ولو لمدّة قليلة بعد أبيه في جزء ضيّق من ممتلكاته بعد نزوحه جنوبا في المناطق المتاخمة للقبائل الجدالية وهذا إن وافقنا رأي بوليبيوس الذي يشير أنّ ماسينيسا قد احتل ما بين ٢٠٤-٢٠٣ ق.م كلّ مملكة سيفاكس، خاصة منها المناطق الغنية وأنّ ظهور الأمير آركو بارزان أحد أحفاد سيفاكس على مسرح الأحداث في الحرب البونية الثالثة عام ١٥ ق.م وإمداد قرطاجة بالعون العسكري لا يعني وجود مملكة مازيسيلية في هذا التاريخ.

وفي الأخير نقول رغم الدهاء والحنكة السياسية التي تمتع بها العاهل النوميدي العجوز إلا أن عزيمة الشباب والتخطيط المحكم الذي قام به ماسينيسا استطاعا هزيمته والقضاء عليه والاستيلاء على مملكته وإعادة توحيد مملكتي نوميديا الشرقية والغربية على يد ماسينيسا وبقيت على نفس الحال في عهد ابنه مسيبسا وتوحيدها مرّة ثالثة على يد العاهل الشاب يوغرطا بعد القضاء على ابني عمه مسيبسا وانهاء السيطرة والتدخل الروماني في الشؤون الداخلية للمملكة.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد العربي عقون، **الاقتصاد والمجتمع في شمال إفريقيا**، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ٢٠١٠، ص١٥٨-١٦٦.
(2) Polybius, Histoire, III, 33, 15.
(٣) محمد الصغير غانم، **المملكة النوميدية والحضارة البونية**، ط١، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، ١٩٩٨، ص١٣٤.
انظر أيضًا: مقال محمد الصغير غانم، **الملك سيفاكس والكيان السياسي النوميدي**، التراث-مجلة تاريخية أثرية، العدد ٩، جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس، ١٩٩٧، ص٨.
(٤) اسمه باللغة القرطاجية كما جاء في النصوص الفينيقية في معبد الحفرة. انظر: Mahfoud Keddache. L'Algérie dans l'antiquité. Nouvelle Edition. Alger. SNED, 1990, p 59.
(٥) فتيحة فرحاتي، **نوميديا (من حكم غايا إلى بداية الاحتلال الروماني) الحياة السياسية والحضارية(٢١٣ ق.م-٤٦ ق.م)**، منشورات آبيك، مطبعة متيجة، الجزائر، ماي ٢٠٠٧، ص ١١٥. ومحمد الصغير غانم، مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم، ج١، ط١، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ٢٠١٠، ص١٣٨.
(٦) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق.
(٧) ملوك الحضارة اليونانية.
(٨) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق، ص١٣١.
(٩) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق.
(١٠) فتيحة فرحاتي المرجع السابق، ص١١٨.
(١١) المرجع السابق، ص١١٩
(١٢) مؤتمر سيقا الدولي ٢٠٦ق.م جمع بين القائد القرطاجي صدر بعل بن جيسكون والقائد الروماني سيبيون في عاصمة مملكة سيفاكس سيقا وذلك من أجل انهاء الحرب الرومانية القرطاجية، لكن الطرفين لم يصلوا لاتفاق.... انظر: أحمد حسين السليماني، **تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة**، ط٢، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠١٧، ص٨٨.
(13) Titius Livius, XXVIII,17(12-6).
(١٤) رابح لحسن، **أضرحة الملوك النوميد والمور(دراسة أثرية وتاريخية مقارنة لأهم الأضرحة الملكية النوميدية والمورية المشيدة منذ ق٤ ق.م إلى غاية عشية الفتح الاسلامي)**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص٤٧.
(١٥) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق، ص ١٢٠.
(١٦) فتيحة فرحاتي، نفس المرجع، ص ١٢٢.
(١٧) مكوسن أو ميسيبسا إبن الملك ماسينيسا، تشير المصادر التاريخية إلى أن مولده كان حوالي سنة 200 ق.م، غير أننا لانعرف الكثير عن طفولته، وكل الذي وصل إلى المؤرخين هو أنّه تربى في كنف والده الملك(ماسنسن) ماسينيسا وتتلمذ عليه أمور الحكم والسياسة ، وقد أشار الجغرافي الإغريقي استرابون إلى أن الملك مكوسن يولي أهمية كبيرة للعلماء والمثقفين ويقضي معظم أوقاته في دراسة الفلسفة انظر: محمد الصغير غانم ، **"نقيشة مسيبسا السيرتية، دراسة لغوية تاريخية" ، حولية المؤرخ** ، العدد ٣-٤ مركز البحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ،الجزائر:2005 ١٥ و انظر كذلك: Charl André Julien, **Histoire de l'Afrique du Nord**, Ed.Payot, Paris.1968.P :125.
(١٨) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق، ص ١٢٣.
(١٩) ستيفان غزال، **تاريخ شمال إفريقيا القديم**، ت: محمد التّازي سعود، ج٣، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة تاريخ المغرب، الرباط، المغرب الأقصى، ٢٠٠٧، ص١٦٠.
(٢٠) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق، ص١٢٤.
(٢١) فتيحة فرحاتي ، المرجع السابق.
(٢٢) نفسه.
(23) Appain , Histoire Romaine, ed, Viereck, dans Bib, Teulner, 1906, P10. ،.....انظر أيضًا: محمد الصغير غانم، مقال: الملك سيفاكس
المرجع السابق، ص١٣.
(24) Titius Livius, Op Cit, P17.
(٢٥) هو إبن الملك غايا ملك نوميديا الشرقية التي تعرف بماسيليا، العدو اللّدود للعاهل سيفاك.
(٢٦) محمد الصغير غانم ، **" نقيشة....**، المرجع السابق، ص٦٤.
(٢٧) ستيفان غزال، المرجع السابق، ص١٨٤-١٨٧.
(28) Titius Livius, XXVIII, 18, 7.
(29) Ibid, 18, 12, XXIX, 36, 24, 3.
(٣٠) محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص ١٤٠.
(٣١) نفسه.
(٣٢) **صوفون بعل:** ابن القائد صدر بعل بن جيكسون وخطيبة الأمير الماسيلي ماسينيسا عندما كان أبوه غايا حليفا لقرطاجة وهو كان في الجيوش القرطاجية في إسبانيا في حروبها مع الرومان. انظر: محمد الصغير غانم، المرجع السابق.
(٣٣) محمد حسين فنطر، يوغرطه، الدار القومية للنشر، ١٩٧٠، ص٦٨.
(٣٤) محمد الصغير غانم، المرجع السابق.
(٣٥) نفسه.
(36) Titius Livius, XXIX, P23,7,10.
(37) Titius Livius, XX .X. 34, 3
(٣٨) حروب قامت بين الرومان وقرطاجة وهناك الحرب البونية ١، ٢ و٣، والتي كانت تحت قيادة الملك هاميلكار برقة ثم ابنه حنبعل برقة.
(٣٩) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس الجزائر المغرب الأقصى، من البدأ إلى الفتح الإسلامي**، ٦٤٧، تعريب: محمد مزالي والبشير سلامة، ص.
(٤٠) غابريال كامبس، **في أصول البربر ماسينيسا أو بداية التاريخ**، تعريب وتحقيق: محمد العربي عقون، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٩، ص١٦٨.
(41) Appain, Lib. II, 12.
(42) Ibid, 13.
(٤٣) محمد الصغير غانم، مقالات وآراء.....، مرجع سبق ذكره، ص١٤٢.
(٤٤) محمد الصغير غانم، مقالات وآراء...، نفس المرجع السابق، ص ١٤٢، ١٤٣.
(٤٥) محمد فنطر، المرجع السابق، ص٦٨.
(٤٦) نفسه.
(٤٧) نفسه.
(٤٨) **أوفيد** شاعر روماني عاش ف القرن ١ ق.م وكذا في بداية القرن ١ م، فهو إذا من المخضرمين. انظر: محمد فنطر، المرجع السابق، ص٦٩.
(٤٩) محمد فنطر، المرجع السابق.
(٥٠) نفس المرجع، ص ٦٩.
(٥١) ستيفان غزال، المرجع السابق، ص١٨٧، ٢٣٨، ٢٣٩.
(٥٢) محمد فنطر، المرجع السابق، ص٧٠، ٧١، ٧٢.
(٥٣) نفسه.
(٥٤) نفسه.